# مُعَلِّمِين كثيرين

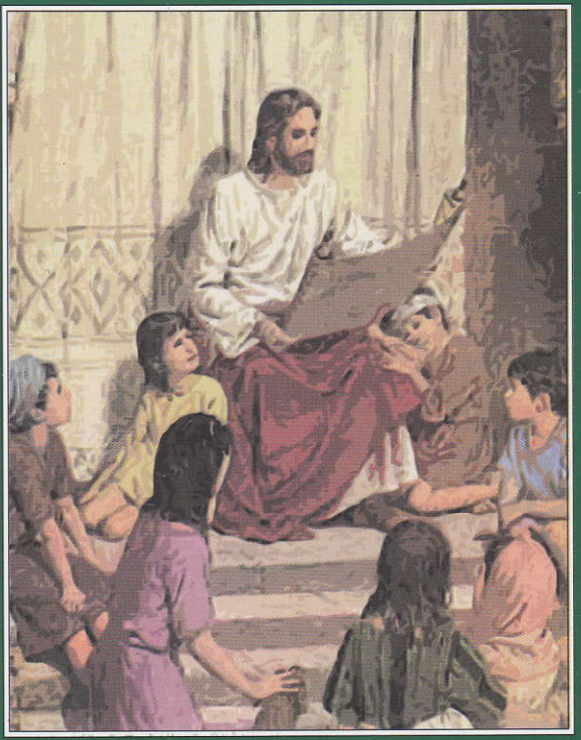

لوزي



مكاريوس

الأسقف العام

مراجعة

نيافة الأنبا أرسانيوس

نيافة الحبر الجليل الأنبا باخوميوس
مطران البحيرة و مطروح و الخمس مدن الغربية
و قائمقام البطريرك

# تمهيد

هذه سطور أسوقها إلى قلب كل خادم غيور محب.. محبة له وخوفاً عليه، وتعاطفاً معه، إنها من وحيِه أيضاً.

أرجوك اغفر لى جسارتى.. فقد كنت أتحدث إلى نفسى ميقناً إنها مشكلتى أنا أولاً، ولكنى تحدثت بصوت عالٍ..

اشهد لك بمحبتك للكنيسة وغيرتك عليها، وجهادك فى سبيل بناء ملكوت الله على الأرض. ولكن اسمح لى أن أهمس فى اذنك:

حذارى بعد أن تكرز للآخرين: أن تصير أنت نفسك مرفوضاً...

من المؤسف أن يتأثر المخدوم بما يسمعه من الخادم، فينصرف إلى ذرف الدمع وقرع الصدر، ويفوز بتوبة نقية.. فى حين يهلك الخادم..

وهكذا يصير للخادم المتوانى تلاميذ قديسون..

انه مجرد قنطرة أو قناة، تعبر النعمة من خلالها إلى الآخرين دون أن تترك (أى النعمة) أية آثار فى تلك القناة.. أو مثل صنبور المياه الذى يعطى وسيلة للنظافة بينما يلفّه الصدأ من الداخل!..

وربما أتقن الوعظ والإرشاد.. يقرأ ويدرس ويحضّر، ولكن انتاجه ليس إلاّ هدية منه للآخرين..

إن خادمنا الطيب: نشط، ولكن نشاطه هو نشاط أفقى وليس رأسياً.. إنه كما قال البعض: يخدم بيت الرب لا رب البيت.

ولذلك فلا عجب إذا لاحظ المخدوم أن الخدام الذين تتلمذ عليهم على مدار مراحل حياته، قد بدأوا فى التوارى واحداً بعد

الآخر لا سيما بعد تخرّجهم وزواجهم، مما يؤكد أنه لم يكن لهم عمق وجذور.

إن الهدف الأساسى من الخدمة أن يخلص الخادم والمخدوم معاً، فالخلاص ليس منحة يمنحها الكبير للصغير، ولكن كلا من الخادم والمخدوم يطلبون هذه العطية من الله باتضاع طفولى.

## عشرة المخدوم فى الخادم :

الخطورة أن يكتشف المخدوم زيف الخادم فيعثر، لا فيه فقط بل ربما فى كل الخدام والكنيسة، وللمخدوم حاسّة لا تخطئ فى اكتشاف إن كان الخادم صادقاً أم لا، ولكن الأخطر من ذلك هو تزييف الوعى الروحى، فإن الفرق بين الخادم أو الشماس من جهة، والفتى أو الفتاة أو الشباب العادى من جهة أخرى، هو أن الخادم هو **شخص مقنّن**.. قنّنته الكنيسة عندما دعته شماساً أو خادماً، والدعوة هنا تعنى أنه أصبح منذ الآن فصاعداً ممثلاً للكنيسة ونائباً عنها، كل ما يقوله صحيح وكل ما يفعله سليم، ويمكن للآخرين تصديقه فيما يقول والاقتداء به فيما يعمل. وبالتالى فعندما يرتاد أحد الشبان العاديين المقاهى أو دور السينما

فإننا نوجهه ونرشده بأن ذلك غير لائق، ثم نحثه على الاقلاع عنه، أما إن وجد ذلك الشاب خادمه فى المقهى أو السينما، فإن الخطورة فى ذلك ليست فى العثرة وحسب بل فى إحتمال اعتقاد الشاب أن السينما والمقهى: أماكن توافق الكنيسة على ارتيادها، مادام الخادم قد فعل ذلك. وما يقال عن السينما أو المقهى يُقال عن الكثير من السلوكيات غير المقبولة.

ولذلك فإن الكنيسة بينما تسعى جاهدة بكل السبل لكى تساعد الشاب العادى حتى يتوب ويقلع عن خطاياه وعاداته الرديئة، فإنها فى الوقت ذاته تسعى وبحزم فى توقيع العقوبة على الخادم أو المسئول الكنسى متى أخطأ وأعثر الشعب، لتقول مرة أخرى أن هذا السلوك خاطئ، مثلما قالت من قبل أن هذا الشخص أقواله وأفعاله سليمة !!

هذا فى الواقع يفسر لنا لماذا كان السيد المسيح حازماً فى توبيخه للكتبة والفريسيين والصدوقيين، إذ كانوا معلمى الشعب وموضع ثقتهم، فقادوا الشعب إلى حافة الضياع، وبينما كانوا يحمّلون الناس أحمالاً عسرة الحمل كانوا هم أنفسهم يتحايلون على الوصايا ليفلتوا من التزاماتها. لقد كان السيد المسيح يخصّ

تلاميذه بأحاديث خاصة كمعلمين سيصبحون مسئولين عن الشعب، بينما كان يكلم الشعب فيما يخصهم، ولكنه فى حالة توبيخ معلمى الشعب من الفريسيين كان ذلك علناً وفى حضور الطرفين، وبينما أوصى الشعب بضرورة الاستماع والطاعة لأولئك القادة: أوصى القادة بحزم بأن يكونوا على مستوى المسئولية (راجع متى ٢٣).

وهاك ما دار بين أو غير حكيمة وطفلها المبارك، قالت الأم فى حدة ورجفة:

- أنت ولد مشاغب ومُتعب.
- آسف يا أمى.
- ولا منفعة منك.
- سامحينى.
- لقد حرمتنى من الراحة ظهر اليوم.
- «اطراقة إلى أسفل».
- إن عدمك أفضل من وجودك.
- لا تغضبى - سأراعى ذلك مستقبلاً.

- ليأت الآن الذين يرغبون فى الإنجاب ليروا !!

- «دموع فى صمت».

وفى لهجة أقل حدة قالت الأم:

- ولكن لا بأس فى ذلك.. هلّم الآن إلى مخدعك وصلى إلى الله علّه يصلح طبعك !!...

هنا ودخل الطفل إلى حجرته، وفى مسكنة وبراءة طفل، ركع قدام صورة السيد المسيح، وسبقته دموعه حين صلى قائلاً:

- «يا رب.. أنت تعلم أن جميع ما قالته أمى صحيح، والآن ها أنا أضم صوتى إلى صوتها وأسألك أن تصلح طبعى. ولكن أرجوك: بينما أنت تصلح طبعى، أصلح طبع أمى..

نسيت أن أقول لكم أن هذه الأم كانت خادمة لبنات ثانوى فى ذلك الوقت.

أو مثلما يشدّد الخادم فى حديثه مع مخدوميه عن اللطف فى التعامل مع أفراد أسرته، ويحدثهم عن بركة الطاعة والبذل.. بل ويسهم فى تخفيف حدة التوتر بين بعض المخدومين وذويهم، وربما قَبِل المخدومون النصح منه وصاروا

لطفاء ودودين. ثم تحدث المفاجأة حين يجئ ذوى الخادم نفسه إلى الكنيسة يبثون شكاواهم ومرارتهم من سوء معاملته وتألبه عليهم «إن كان أحد لا يهتم بخاصته ولا سيما أهل بيته فقد أنكر الإيمان وهو أشر من غير المؤمن» (١تى ٥:٨).

ثم ماذا لو عايشك سامعوك يوماً كاملاً؟ ماذا عساهم أن يروا أو يكتشفوا؟، هل شخصية أخرى مغايرة تماماً لتلك التى يعرفونها؟ أم سيرون مسيحاً منظوراً.. أم أن هناك ازدواجية، بحيث أن الجانب الآخر من شخصيتك يرثى له ويستدر العطف والأسف؟! يقول المتنيح القمص بيشوى كامل «حين يخطئ الذين هم من خارج الكنيسة يصلى عنهم خدام الكنيسة، ولكن عندما يخطئ خدام الكنيسة فمن يصلى عنهم؟».

ولذلك وفى عتاب طويل نبّه القديس بولس القادة والخدام فى روما قائلاً: «هوذا أنت تُسمى يهودياً وتتكل على الناموس وتفتخر بالله. وتعرف مشيئته وتميّز الأمور المتخالفة متعلماً من الناموس. وتثق أنك قائد للعميان ونور للذين فى الظلمة ومهذّب للأغبياء ومعلم للأطفال ولك صورة العلم والحق فى الناموس. فأنت إذاً الذى تعلم غيرك ألست تعلم نفسك الذى تكرز أن لا

يُسرق أتسرق. الذى تقول أن لا تزنى. أتزنى. الذى تستكره الأوثان أتسرق الهياكل. الذى تفتخر بالناموس أبتعدّى الناموس تهين الله. لأن اسم الله يُجدف عليه بسببكم بين الأمم كما هو مكتوب. فإن الختان ينفع إن عملت بالناموس. ولكن إن كنت متعدياً الناموس فقد صار ختانك غرلة. إذا إن كان الأغرل يحفظ أحكام الناموس. أفما تحسب غرلته ختاناً. وتكون الغرلة التى من الطبيعة وهى تكمّل الناموس تدينك أنت الذى فى الكتاب والختان تتعدّى الناموس. لأن اليهودى فى الظاهر ليس يهودياً ولا الختان الذى فى الظاهر فى اللحم ختاناً. بل اليهودى فى الخفاء هو اليهودى وختان القلب بالروح لا بالكتاب هو الختان الذى مدحه ليس من الناس بل من الله» (رومية ٢ :١٧ ـ ٢٩).

وهكذا تنشأ هوة كبيرة ما بين «خطاب» الخادم أو الواعظ من جهة وسلوكه الشخصى من جهة أخرى.

ربما يفسر لنا ذلك لماذا تشتد دالة بعض أبناء المسئولين فى الكنيسة على الخدام والإكليروس والكنيسة ذاتها، بحيث يفقدون احترامهم لها وتقديرهم للإكليروس، بل ويصعب التأثير

عليهم بالإرشاد أو العتاب، من الجائز أن يكونوا قد تعثروا فى الشخص الذى يعايشونه بعيداً.. بعيداً عن الرسميات والعظات وبقية الأنشطة.. نعم فهم يعرفون كافة ضعفاته.. ولعله قد فقد احترامهم له وبالتالى فقدت الكنيسة كلها احترامهم لها بسببه. لذلك فالكاهن هو ممثل الله سواء فى الكنيسة أو بين أفراد أسرته.. انه كاهن فى الكنيسة وكاهن فى منزله.

سألت ذات يوم اثنين من الشبان عن سبب اختيارهم لأبيهم الجسدانى - وهو الكاهن - ليكون أب إعتراف اثنيهما وان كان ذلك قد بدأ منذ الطفولة ولا مجال الآن لتغييره، أم جاء ذلك لاحقاً، فعلمت منهما أنهما اختاراه مؤخراً ليكون أب اعترافهما، فتأكد لى لحظتئذ أنه أب فاضل، ثم أردفا قائلين أن الأب الأسقف الذى سامه كاهناً أوصاه قائلاً: كن فى الكنيسة للشعب أب جسدانى ثم أب روحانى، أما فى منزلك فكن أب روحى أولاً ثم أب جسدانى.. إن الحجم الحقيقى لأى خادم، يظهر وهو فى بيته وبين ذويه، أو بين أصدقائه المقربين، بعيداً عن العيون والرقابة، إذ قد يضطره كبرياءه إلى ارتداء ثوب اكبر من حجمه..

متى كان المتكلم أو الواعظ مؤمناً بما يقول، فإن السامع دون شك سيؤمن بما يسمع، وإذا كان مقتنعاً بما يقوله فإن السامع سوف يقتنع، وهكذا إذا كان متفاعلاً مع الكلام فلاشك أن كلامه سيتحول إلى حياة لدى السامع، أمّا إذا لم يكن الأمر هكذا، فإن العظة أو المحاضرة سوف تتحول إلى مجرد ثقافة ومعرفة روحية فقط. لذلك يقول القديس بولس «عيشوا (لا علّموا) كما يحق لانجيل المسيح» (فيلبى ١ :٢٧).

من المؤلم أن يتحدث شخص عن شئ لا يؤمن به أو شئ لم يختبره «أنتم تسجدون لما لستم تعلمون» (يوحنا ٤ :٢٢) لقد كان هناك بعض من صغار الرهبان يطوفون ليجمعوا أقوالاً من الآباء ونصائح واختبارات (وكانوا فى الغالب يدوّنونها فى (دفتر) نوتة معلّقة فى مناطقهم) وذلك لكى يردّدوها هم بدورهم أمام آخرين، ربما من أجل التظاهر فقط. واحد من أولئك سأل أحد الشيوخ عن كلمة منفعة فلم يجبه إلى طلبه، فلما انصرف من قدامه سأله الآباء الجلوس حوله عن سبب امتناعه عن ذلك فقال: «يعلم الله أنى لم أمسك عنه إلا لكونه بيّاع كلام، يؤثر أن

يتمجد بأقوال الآخرين!» وفى هذا الصدد يعلق أب آخر قائلاً «كيف تتحدث عن مدينة لم تدخلها بعد؟!».

لقد سئم الناس كثرة التعليم، فهم يسمعون ويقرأون كثيراً، فإن الحاجة ماسّة جداً إلى أناس يترجمون ما يقال، فى سيرتهم وسلوكهم، أناس يحوّلون الكلام إلى حياة، يتحول بهم الإنجيل المدون إلى إنجيل معاش مثمر.

قال لى أحدهم: لقد سمعت عن الاتضاع كثيراً وقرأت عنه كذلك، بل تكلمت فيه مع آخرين وعدّة مرات من فوق المنبر، غير أنى لم أذق فى الحقيقة طعم ذلك الذى أقرأ وأتكلم عنه، ولم أحيه.. إلى أن هيأ الله لى أن أقابل شخصاً وديعاً متضعاً.. فى هذه المقابلة فقط: تعلمت ماهية الاتضاع كحياة تُعاش وثمرة شهية تُشبع وتُسمّن.. إنه الإتضاع السلوكى.. مع أن ذلك الأخ لم يتكلم معى عنه!.

وهكذا فقد يقوم السلوك مكان التعليم بل ويتفوق عليه، فقد يُمنع التبشير بالمسيح فى بلد ما، ومع ذلك ربما يصل أهل ذلك البلد إلى الإيمان بالمسيح مخلصاً وبالمسيحية نصرة على العالم وحياة أفضل وعربوناً لمجد لا يضمحل، لأنه كان هناك من

أعطاهم ذاته مثالاً للمسيح، مثلما قال معلمنا بولس الرسول «متمثلين بى كما أنا بالمسيح» (١كو ١١: ١).

جاء بعض الآباء ذات مرة إلى القديس شيشوى بأحد الرهبان الجدد قائلين: هذا الراهب يود التتلمذ على قدسك، ثم تركوه وانصرفوا، فلما عادوا إليه بعد مرور اسبوعين وجدوا الراهب الشاب حزيناً لأن الأب لم يأمره بشئ ولم يطلب منه شيئاً، فلما سألوا الأب فى ذلك، أجاب متسائلاً ماذا يمكننى أن أقول له، وانما إن أراد أن يتعلم فلينظر ماذا أفعل ويصنع مثلى.

وهكذا يمكن أن يتأثر التلميذ أو المخدوم عن بُعد، فالذين تأثروا بحياة القديس الأنبا بولا وكذلك الأنبا أنطونيوس لا يقعوا تحت حصر، ليس فقط مئات الآلاف من الرهبان الذين ساروا على دربهما، بل وأضعافهم ممن لم يترهبوا متأثرين فى ذلك اكثر مما فى آلاف العظات الرنانة الجوفاء. بل أن القديس أنطونيوس ذاته عندما سأله جماعة من الفلاسفة عن مصادر معرفته وحكمته وفضائله: أجابهم ان كتبى هى شكل (طقس) الذين سبقونى.. ويقصد بالطبع طريقة حياتهم التى تتلمذ عليها.

لقد طفح العالم بالتعليم والكلام المنمق والبلاغة فى الأسلوب والاجتهاد فى انتقاء الألفاظ، وتعددت مصادر التعليم، وأصبح من السهل على أى شاب حديث السن أن يعظ.. فيكفيه أن يقرأ كتاباً ليجعل منه عظة يلقيها ويبهر بها سامعيه. ان الكومبيوتر وهو مجرد جهاز (جماد) يمكن أن يُحسب عالماً!! لما يمكن أن يحويه داخله من كم هائل من العلوم يستحيل على شخص واحد استيعابها، ولكنه فى النهاية مجرد جهاز، بل كثيراً ما يلقب بالماكينة الغبية *Stupid Machine*.

وهناك فى تاريخ الكنيسة من يُطلق عليهم «علماء» لا «قديسين» ربما لبعض أخطاء ارتكبوها وربما لأنهم جعلوا اهتمامهم الأول هو العلم والبحث، والكنيسة هى كنيسة قديسين لا أبطال، فإننا نحتاج إلى أناس يثبتون لنا أن كلمة الله صادقة وأمينة وحية وفعالة.. أناس يشهدون لله وللوصية. ولقد اختار أباؤنا القدامى منهج التسليم، وأراحهم أكثر من التعليم فقط «من عمل وعلم فهذا يدعى عظيماً» (متى ٥:١٧).

ودعنا نتسائل الآن عن الخدمة التى أداها الشهداء لبقية

الكنيسة، سواء فى عصرهم أو خلال العصور التى تلت استشهادهم؟ سوى أنهم كانوا رسالة الله المقروءة.. لقد جذبت محبتهم الصادقة للمسيح مئات الألوف من الوثنيين ليموتوا لأجله، دون وعظ أو تبكيت.

هناك نوعان من الخدام أو المعلمين، نوع محب للقراءة والاطلاع والدراسة والبحث، حتى يصبح عالماً ولكنه متعجرف ومتصلّف، وأما النوع الآخر فهو لطيف ووديع ومسالم، ولكنه جاهل وغير مستنير، أما النسبة التى جمعت بين الاتجاهين: العلم والفضيلة، أو بين الأكاديمية والسلوك الروحى فهى ضئيلة جداً (١).

لقد شدّد الآباء على ضرورة التعليم والإرشاد كدعامة رئيسية للخلاص والتصاق النفس بالله، إلاّ أن فريقاً كبيراً منهم

١- والأعجب من ذلك أن يتظاهر الخادم بالمعرفة ويبالغ فى ذلك متخذاً هيئة عالم! مدعيا الحكمة كمن يقبض وحده على مفاتيح المعرفة ويتظاهر بالضلوع فى الموسيقى والفن والسياسة والأدب ويستحى من التظاهر بالجهل! ولكنه ليس عيباً أن يقر بجهله فى مثل تلك الأمور فهى ليست دوائر اختصاصه ولن يحتقره أحد إذا استعفى عن الكلام فيها، كلا بل انهم يتوقعون سماع ما يخص الله فقط لأن الخادم جهة اختصاص فى ذلك دون غيره!!.

لم يكونوا ليجيدوا التعبير عن مكنوناتهم الداخلية، وهكذا وُجد نوعان من الآباء: نوع لا يجيد التعبير عما بداخله، ونوع آخر لايريد التعبير عنه «أختى العروس جنة مغلقة .عين مقفلة. ينبوع مختوم» (نش ٤ :١٢) .

وكما يوجد إنسان يقرأ لكى يعظ، هناك أيضاً من يقرأ لكى يكتب، ويكتب لكى يقرأ ما يكتبه هو.. إنه من اللائق أن يبحث الكاتب عن الله بين السطور، لا عن نفسه، إنه يأخذ بأصبع القارئ لكى يشير بها إلى الله لا إلى ذاته، فلا يصبح همّه هو أن يُرضى القارئ، أو المستمع (فى حالة الوعظ) وبالتالى يبحث عن مجده الشخصى لا مجد الله.

هنا وتحضرنى قصة رواها القديس جلاسيوس، قال:

استحسنت كتاباً لدى أحد النساخ المهرة، فطلبت إليه أن يعدّ لى نسخة، فوعدنى بذلك.. ولما قارب على الانتهاء منه تقدم إليه آخر وطلب الكتاب باسمى وأعطاه الثلاثة عشر ديناراً ثمنه (قيمة نساخته) . وحدث من بعد مدة من الزمن أن طلبت منه الكتاب.. فإذا به ينزعج إذ أحس أن آخراً قد خدعه، وأخبرنى أنه ماض إلى ذلك الأخ ليوبخه أولاً، ثم يسترد الكتاب

منه، ويستطرد الأب جلاسيوس فيقول: فأبيت على نفسى ذلك وعلى الناسخ أيضاً، قائلاً له: أننا نقتنى الكتب لكى نتعلم منها الفضائل، ولكن إن كانت فاتحة اقتنائها بغضة وخصام فلا حاجة لى بها..

هنا وأشعر أن القارئ (القديس جلاسيوس) يبحث عن الله لا عن الكتب.

وعندما قبض الفريسيون على المرأة الخاطئة، أوسعوها تعييراً وإهانة، ثم ألقوها فى غير شفقة عند قدمى المسيح مشتكين عليها من جهة ومتربّصين به من جهة أخرى، لقد اهتموا بتتميم الناموس فى تلك المرأة، ناسين أن الناموس نفسه يدينهم هم أيضاً إذ لم يعملوا به بل طبقوه على غيرهم فقط، وسقطوا فى خطايا أبشع مثل الإدانة وعدم الرحمة وتصيّد الأخطاء للآخرين، فى هذا يقول القديس بيمن «لا تدن الزانى أيها العفيف لأن الذى قال لا تزن قال أيضاً لا تدن، فإن أنت لم تزن ولكن أدنت أخاك، فقد صرت مخالفاً للناموس».

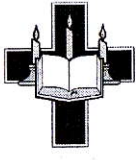

## محبة التعليم والبلادة الروحية

لا شك أن كثرة الكلام دون العمل تصيب الإنسان بالبلادة الروحية، وقليلاً قليلاً يتحصّن ذلك الخادم ضد التوبة، فلا يسمع لأحد ولايقبل نصحاً أو تعليماً من آخر، فكيف ذلك وهو الذى علّم الكثيرين وله تلاميذ عديدين وله عظات ومقالات وربما كتباً، ولكن الحق الإلهى يقف فى مواجهته قائلاً «فأنت إذا الذى تعلم غيرك ألست تعلم نفسك؟! » (رومية ٢ :٢١) وهكذا فإن الذين يعلمون كثيراً، لا يتقبّلون - بسهولة - النقد الذى يوجه إليهم، حيث اعتادوا انتقاد الآخرين فقط.

والآن دعنى أهمس من جديد فى أذنك.. فلعلّ الإنسان البعيد الكنيسة - والذى توصف علاقته بالله وبالكنيسة على أنها سطحية - ربما كان أكثر قبولاً لدى الله منك.. نعم انه خاطئ.. ولكنه يعرف انه خاطئ، وربما يمنعه هذا الشعور من دخول الكنيسة، ولكنك أنت خاطئ أيضاً وربما أكثر منه، ومع ذلك فأنت لا تشعر بخطيئتك، ولا تتضع بفكرك، وإذا جاء ذاك إلى الكنيسة فبالخشوع يقف وبالحرارة يصلى، وبالإنسحاق ينزوى فى الزاوية البعيدة، وبينما اعتدت أنت على الكنيسة وأصبحت

تسلك داخلها بحرية كبيرة، ربما داخل المذبح أيضاً بينما السيد المسيح قائم مذبوحاً!. بل وقد تثور إذا واجهك أحد بذلك.

ولذلك فإن ذاك الخاطئ إذا ما تخشّع قلبه وعاد إلى حضن الله، فلا شك أنه قد يسبق جميع الذين فى الداخل! ألم ينزع الله ملكوت السموات ممن ظنوا أنهم سكّانه القانونيين، وأعطاه لكثيرين آخرين أتوا من المشارق والمغارب.. «ويأتون من المشارق ومن المغارب ومن الشمال والجنوب ويتكئون فى ملكوت الله. وهوذا آخرون يكونون أولين وأولون يكونون آخرين» (لوقا ١٣ :٢٩، ٣٠) راجع أيضاً (متى ٨ :١١).

يقولون أن للناس أربع مراتب:

أ- خاطئ متكبر. ب- خاطئ متضع.

جـ- بار متكبر. د- بار متضع.

ومن الواضح أن أخطرهم هم أصحاب التصنيف الأول بينما أفضلهم أصحاب التصنيف الأخير، أمّا إن أردنا المقارنة بين الفريقين الثانى والثالث، فلا شك أن الخاطئ المتضع: أقرب إلى التوبة والخلاص من الفريق الثالث، والذى من المحتمل أن له البر الذاتى وهو عائق خطير بلاشك فى طريق الخلاص.

وقد يبدأ الخادم حياته الكنسية حاراً أميناً ومتضعاً وممتلئاً بالروح، ولكنه بمرور الوقت تفتر الحرارة وتتقلّص الأمانة ويزداد الفراغ ويحترف الخدمة فيشعر بذاته، ولكن مكان الخادم الحقيقى ليس أعلى المنابر بل تحت الأقدام.. إن المعطى الحقيقى فى الخدمة هو المسيح، لقد كان ديماس حاراً فى الروح نشيطاً فى الخدمة شريكا للقديس بولس، ولكن القديس بولس يقول فى مرارة أنه تركه إذ أحب العالم الحاضر (٢تى ٤ ـ ١٠) فقد ترك العمل الكرازى هرباً من الاستشهاد، راجع أيضاً (كو ٤:١٤، فل ٢٤) وهو نفس ما حدث مع نيكولاوس وأتباعه والذى اختاره الرسل من بين الشمامسة السبعة (أعمال ٦:٥) فانجرف إلى البدع وقاوم الكنيسة، وهذه فى الواقع هى مشكلة الهراطقة أنهم اعتادوا التعليم ولم يخضعوا للتعلّم. بل اجتهدوا فى التعليم المسلّم إلينا من القديسين (فسّروه بطريقتهم) . قال أنبا بيمن «كن قدوة لا بالكلام بل بالعمل، لأن كثرة الكلام تولّد الكسل»

## الازدواجية

فى شكلها البسيط المتعارف عليه، الازدواجية هى أن يُظهر الإنسان خلاف ما يبطن، وهناك فرق بين شخص يجتهد حتى لا يعثر الآخرين، وشخص يفتعل القداسة ويرتدى عباءتها حتى يمتدحه الآخرين، فيصدقه الناس مع الوقت حتى يصدق هو ذاته بالتالى، ويحيا فى خداع كبير، ويصبح بوناً شاسعاً مابين المحتوى الفعلى له والإطار الخارجى.

من ثم يتعامل معه الآخرون على هذا الأساس ويُستقطب هو إلى داخل هذه الدائرة فيأبى إلاّ أن يسلك حسبما يتخيلوه هم، ويكف عن السلوك الطبيعى (على سجيّته) بحيث يكون صادقاً ولا يجد سبيلاً - مع الوقت - إلى التخلى عن ذلك. وهذه هى الازدواجية الأخطر، ومن شأن ذلك أن يجعله فى البداية معذباً من ضميره ومن نخس الروح القدس، ولكنه قليلاً قليلاً لا يأبه للتبكيت، فينطفئ الروح داخله.

ولا يظهر إلاّ فى وضع القديس والواعظ والمعلم والناصح، على طول الخط، وينشأ تمثال ضخم له (اشترك الطرفان فى صنعه) ومن أجل الحفاظ على هذا النُصب كى لا يسقط أو يُمسّ

يتمادى فى ذلك ويبالغ متخذاً هيئة عالم وقديس معاً ويرتئى فوق ما ينبغى.

فقد كان وما يزال بعض البسطاء يتوهمون أن الكاهن أو الراهب هو شخص غير عادى، فلا يأكل ولا يشرب ولا يضحك ولا ينام ولا يحتاج البتة إلى ما يحتاج إليه البشر عادة، ومن ثم فهم لا يقبلون منه غير ذلك! ومن هنا علينا توعيتهم بأن الخادم أو الراعى هو شخص له ضعفات ويجاهد فى سبيل التخلص منها يقول القديس ايرينيئوس «الراعى هو تائب يقود تائبين». علينا أن نسعى فى توصيل هذا المفهوم لهم حتى لا يصدموا متى صدر عنّا ما سبق فاستبعدوه.

## كلمة أخيرة

نحن لا نقلل من قيمة التعليم، بل نؤمن بأهميته فقد كتب «هلك شعبى من عدم المعرفة» (هوشع ٤:٦، إشعياء ٥:١٣) وانما من الضرورى أن يخلص الخادم أيضاً إذ لا يكفى أن يكون معلماً ثم يخسر أبديته. حقيقى أن الله لن يوقف خلاص أنفس المخدومين على القامة الروحية للخادم، ولكن فقط احذر لئلا تكون مثل شرطى المرور الواقف فى موضعه لا يتحرك فى

حين أنه يرشد الآخرين والضالين، كلٍ إلى طريقه السليم حتى يصل إلى هدفه، قال أحد الآباء الأساقفة متلطّفاً: احذر لئلا فيما أنت تملأ الكنيسة صياحاً، تشبه الناقوس (جرس الكنيسة) والذى ينحصر عمله فى دعوة الناس إلى الكنيسة بينما هو ثابت فى مكانه خارج الكنيسة. أو مثلما اعتاد الكثير من مرتلى الكنائس أن يُشجوا الحاضرين بأصواتهم الجميلة وألحانهم العذبة المُتقنة، بينما هم نادراً ما يتقربون للسرائر المقدسة.

وهكذا فقد ينفعل الواعظ بينما هو يتكلم عن الهدوء والدعة، أو يتكلم عن السلام فلا يجد سامعوه علامات ذلك السلام على محياه بل يرونه حاد الملامح، وآخر يبذل أكثر وقته وطاقته فى زرع السلام بين المتشاجرين فى حين لا سلام بينه وبين أفراد أسرته هو، وربما لهذا السبب عينه: يقضى يومه خارج بيته يعمل مصلحاً، بينما خلّف وراءه خراباً.

والخطورة أن يكتشف المخدوم ذلك فيعثر لا فى الخادم فقط بل ربما فى جميع الخدام، وينظر فى حسرة ومرارة إلى الخادم ثم يقول سراً: (ظننناك حملاً فوجدناك ذئباً) وقد لا يسمع للكنيسة من جديد إذ أحسّ أنه مجرد تمثيل: ذاك الذى يسمونه خدمة ومدارس أحد، والأخطر من ذلك أن يشعر أن ما يحدث

هو شئ عادى لا يُلام هو عليه إن صدر منه.. أم تظنون أن الطفل سوف يلتمس العذر للخادم ؟!، إن الروح القدس دائماً ما يتدخل لكى ينقذ الطفل فيضع ستار النعمة على عينيه بحيث لا يرى إلاّ كل فضيلة وبر فى خدامه. ليتك تصلى حتى لا يعثر فيك أحد فيهلك وتطالب أنت بدمه.

اننا ننصح المخدوم دائماً بأن يسمع لكلام خادمه ويحفظه دون أن يتأثر بما قد يصدر عنه من تصرفات معثرة «كل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ولا يفعلون» (متى ٢٣ :٢) بينما قال السيد المسيح فى المقابل للعبد الكسلان «من فمك أدينك» (لوقا ١٩ :٢٢).

إن الصلاة هى القوة الدافعة للكلمة إذ هى حثّ الروح القدس على أن تؤتى الكلمة بالثمار المرجوة فى قلب وفكر المخدوم، فقد كان نمو الكنيسة الأولى من خلال الصلاة والإفخارستيا (كسر الخبز) ومن هنا فإن عمل الخادم فى الأساس هو ربط المخدوم بالافخارستيا فيحول المخدوم إلى المسيح ويوحّده به.

لقد طلب أحد الأباء الأساقفة الغربيين من البابا أن يعطيه أربعة من الرهبان ليجعلهم معه فى الأبروشية، قال له إنهم لن

يخدموا فلدىّ خدام وكهنة كثيرون ولكنى أود فقط أن يقيموا الصلاة من أجل نمو الخدمة ونجاحها [1] وفى كثير من الكنائس الآن يتم إختيار عدة خدام يجتمعون للصلاة من أجل الخدمة فى الوقت الذى يخدم فيه اخوتهم، كلٍ فى فصله، فيما يمكن أن يسمّى: «خدمة الخفاء» وقد تبلغ ثمار الخدمة من الصلاة اكثر بكثير مما يحققه الوعظ والتعليم.

فإذا كنت ممن نجحوا فى التعليم والارشاد بينما تشعر بالضعف والاهتزاز من الداخل، فلا بأس فى أن تبقى على ما هو فى الخارج فى الوقت الذى تحاول فيه تقويم الداخل، إذ سيكون من غير الحكمة هدم ما بالخارج والتنازل عنه لكى تبدأ من جديد، فلربما كانت تلك حيلة من الشيطان حتى يوقعك فى اليأس وصغر النفس عندما تبدأ من جديد.

ولتخرج خارج نطاق الخدمة والتعليم بين آن وآخر، إماَ لتختلى وإما لتجلس فى صفوف التلاميذ فى اتضاع حتى تنحدر نحوك النعم الإلهية، وإذا اتخذت موقف المعلم فليكن ذلك باتضاع كثير ووداعة، وكل ماتقوله احسبه مرسل من الله إليك أنت والذين يسمعونك معاً فنحن جميعاً فى قارب واحد نجاهد معاً لنخلص معاً [2].

---

١- كتاب أصول الحياة الروحية.

٢- انظر كتاب حياة التلمذة للمؤلف.

## كتب أخرى للمؤلف

**دراسات في العهد القديم:**

١) تفسير سفر طوبيا
٢) تفسير سفر يهوديت
٣) تفسير سفر حكمة سليمان
٤) تفسير سفر يشوع بن سيراخ
٥) تفسير تتمة أستير ودانيال وصلاة منسى والمزمور ١٥١
٦) مدخل إلى سفري المكابيين
٧) تفسير سفر المكابيين الأول
٨) تفسير سفر المكابيين الثاني

**كتب تاريخية ودراسات:**

٩) الرهبنة الحبشية
١٠) شهداء نجران
١١) بيلاطس البنطي
١٢) التلمود (نشأته، تاريخه، بعض من نصوصه)
١٣) الهيكل: الطقوس والاحتفالات كما كانت تتم في أيام السيد المسيح (مترجَم)
١٤) مدخل إلى الموسيقى القبطية (طبعة تحضيرية)
١٥) دراما الصلب

**سير آباء:**

١٦) الأنبا موسى الأسود
١٧) الغريبان الصغيران (القديسان مكسيموس ودوماديوس)
١٨) الأب عبد المسيح الحبشي
١٩) الأب بنيامين المتوحد
٢٠) الأب عبد المسيح صليب المسعودي البرموسي
٢١) الأب تادرس الأنبا بولا (حكاية راهب في القلاية المجاورة)
٢٢) شهداء العهد القديم

**كتب روحية:**

٢٣) التلمذة الروحية
٢٤) الميطانيات
٢٥) شبابنا وفكر الرهبنة
٢٦) معلمين كثيرين
٢٧) كيف أحيا عفيفاً
٢٨) العمل الفردي